بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة دينية

فضيلة الشيخ الدكتور محمد أحمد عبد الغني



بعنوان :

(من محراب العبادة الى ميدان المعاملة).

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الأفاضل، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فهذا موضوع يمس واقعنا اليومي، ويضعنا أمام سؤال مهم: ما الأثر الذي ينبغي أن تتركه عبادتنا في أخلاقنا وسلوكنا وعلاقاتنا بالناس؟ وهل يقتصر التدين على أداء الشعائر والالتزام بالمظاهر الدينية، أم أنه يمتد ليشمل الصدق والأمانة والعدل والرحمة وحفظ الحقوق؟

إن الإسلام ليس طقوسًا تؤدَّى في المساجد فحسب، ولا مظاهر دينية يراها الناس، وإنما هو عقيدة راسخة، وعبادة لله تعالى، واستقامة في السلوك، وإحسان في المعاملة، وعدل في أداء الحقوق.

وقد أمرنا الله تعالى بالعبادة، فقال سبحانه:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21].

والتقوى ليست كلمة تُقال باللسان، وإنما حقيقة إيمانية تظهر آثارها في القلب والجوارح، وفي علاقة الإنسان بربه، وفي تعامله مع أهله وجيرانه وشركائه وسائر الناس.

ومن هنا تأتي أهمية الحديث عن الانتقال من محراب العبادة إلى ميدان المعاملة، لا بمعنى مغادرة العبادة أو التقليل من شأن الشعائر، بل بمعنى أن يحمل المسلم آثار عبادته معه إلى حياته كلها.

المحور الأول: مفهوم العبادة الشامل

العبادة اسم لكل ما يرضاه الله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة. والعبادة نوعان : عبادة شعائرية وعبادة تعاملية .

العبادات الشعائرية :وهي العبادات المعروفة التي يتقرب بها المسلم إلى الله تعالى، كالصلاة والصيام والزكاة والحج والذكر والدعاء.

والعبادات التعاملية : وهي الأعمال التي يؤديها المسلم في علاقاته الاجتماعية والاقتصادية والأسرية والمهنية، ابتغاء مرضاة الله والتزامًا بأحكام شرعه؛ كبر الوالدين، وصلة الرحم، والإحسان إلى الجار، والصدق في التجارة، والأمانة في العمل، والعدل بين الناس، والوفاء بالعقود، وإعطاء كل ذي حق حقه.

ومن هنا، فإن المسلم لا يكون عبدًا لله في المسجد فحسب، بل يكون عبدًا لله في بيته وسوقه وعمله، وفي كل موضع يطالب فيه بأداء واجب أو حفظ حق أو اجتناب ظلم.

فالذي يصلي ثم يغش في تجارته، أو يحج ثم يأكل أموال الورثة بالباطل، أو يكثر من الذكر ثم يؤذي الناس بلسانه، يحتاج إلى مراجعة أثر عبادته في سلوكه، وإلى إصلاح ما بينه وبين الله وما بينه وبين خلقه.

أولا : ان مساحة العبادات التعاملية في حياة المسلم اكبر من مساحة العبادات الشعائرية ،فالشهادتان مرة في العمر والحج مرة في العمر للمستطيع فقط والزكاة مرة في العام لمن ملك النصاب وحال عليه الحول والصوم شهر في السنة والصلاة خمس مرات في اليوم والليلة بينما العبادات التعاملية ففي كل ساعة ودقيقة وثانية .

ثانيا : ما هي العلاقة بين العبادات الشعائرية والعبادات التعاملية :

العبادة في الإسلام أوسع من أن تُحصر في الصلاة والصيام والزكاة والحج؛ فهي تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

المحور الثاني: العبادة وأثرها في استقامة السلوك

إن العبادات الشعائرية ليست منفصلة عن الأخلاق والسلوك، وإنما شرعها الله تعالى لتزكية النفوس، وتقوية الصلة به، وحمل الإنسان على التقوى والاستقامة.

قال الله تعالى:﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[العنكبوت: 45].وقال سبحانه في الصيام:﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183].فالغاية أن يكون للصلاة أثر في سلوك المصلي، وللصيام أثر في أخلاق الصائم، وللزكاة أثر في تطهير النفس والمال، وللحج أثر في تهذيب السلوك وتعظيم حرمات الله.

قال تعالى في شأن الزكاة:﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103].وقال في شأن الحج:﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: 197].

فالصلاة ليست مجرد حركات تؤدَّى، والصيام ليس مجرد امتناع عن الطعام والشراب، والحج ليس مجرد انتقال إلى الأماكن المقدسة؛ بل هي عبادات عظيمة لها مقاصد وآثار ينبغي أن تنعكس على حياة المسلم.

وقد قال النبي ﷺ:مَن لم يَدَعْ قولَ الزور والعملَ به، فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه» رواه البخاري.

والمقصود أن المسلم لا ينبغي أن يجمع بين عبادة يؤديها ومعصية يصر عليها من غير توبة أو إصلاح؛ بل عليه أن يسعى إلى أن تكون عبادته سببًا في تهذيب نفسه وتقويم سلوكه.

وهنا تنبيه مهم: لا يعني ارتكاب المعصية أن الصلاة أو الصيام يبطلان تلقائيًّا من الناحية الفقهية، وإنما قد يفوّت العاصي على نفسه كمال الأجر، ويعرّضها للمؤاخذة، بحسب المعصية وأحكامها.

ومن أوضح الشواهد على خطورة إيذاء الناس ما جاء في حديث المرأة التي كانت تكثر من الصلاة والصيام والصدقة، لكنها كانت تؤذي جيرانها بلسانها، فقال النبي ﷺ عنها: «هي في النار»، وجاء في الحديث ذكر امرأة أخرى قليلة النافلة، لكنها لا تؤذي جيرانها، فقال ﷺ: «هي في الجنة». والحديث رواه أحمد وغيره، وينبغي ضبط لفظه وتخريجه في النسخة النهائية.

إن هذا الحديث يلفت نظرنا إلى أن كثرة النوافل لا تبرر إيذاء الخلق، وأن حسن المعاملة وكف الأذى من أعظم أبواب الخير.

فليس المطلوب أن تمتلئ المساجد بالمصلين فحسب، بل أن يشعر الناس بآثار الصلاة في أخلاق المصلين، وأن يجد الجار من جاره أمانًا، والزوجة من زوجها رحمة، والضعيف من القوي إنصافًا، وصاحب الحق ممن عليه الحق وفاءً وأداءً.

المحور الثالث: حسن المعاملة وأداء الحقوق معياران مهمان لاستقامة التدين

من الأخطاء أن يظن الإنسان أن صلاحه يُقاس بالمظاهر وحدها، أو أن كثرة عبادته تعفيه من واجب الصدق والأمانة والعدل.

إن حسن المعاملة ليس بديلًا عن العبادة، كما أن أداء الشعائر ليس بديلًا عن أداء حقوق الناس؛ بل كلاهما من مقتضيات الدين، ولكل منهما منزلته وأحكامه.

وقد جمع النبي ﷺ بين الإيمان والسلوك، فقال:أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا» رواه الترمذي.

فحسن الخلق ليس أمرًا هامشيًّا في حياة المسلم، وإنما هو من كمال الإيمان، ومن دلائل التربية الإيمانية الصحيحة.

وتأملوا في أهمية الأمانة والصدق: قد يعرف الناس الإنسان من مظهره الديني، لكنهم لا يختبرون صدقه اختبارًا حقيقيًّا إلا حين يتعاملون معه، ولا تظهر أمانته كاملة إلا عندما يصبح المال في يده، أو يكون الحق عنده، أو يستطيع أن ينتفع بخطأ غيره دون أن يراه أحد.

ومن هنا تبرز أهمية عدد من القيم التي ينبغي أن تكون حاضرة في حياتنا:

- الصدق: في الأقوال والوعود والشهادات والمعاملات.
- الأمانة: في الأموال والمسؤوليات والأسرار والوظائف.
- العدل: في الحكم بين الناس، وفي التعامل مع الزوجة والأبناء والشركاء والورثة.
- النزاهة: بالابتعاد عن الغش والرشوة واستغلال النفوذ وأكل المال بالباطل.
- الرحمة: بالضعفاء والمحتاجين والأهل والجيران.
- الوفاء: بالعقود والعهود والالتزامات.
- كف الأذى: باللسان واليد وسائر صور الضرر.
- الإحسان: بتقديم الخير للناس، وبذل المعروف، والسعي في قضاء الحاجات.

وهذه القيم ليست مجرد آداب اجتماعية، بل هي من المعاني التي جاء الإسلام بتأكيدها، ورتب على كثير منها الثواب، وعلى الإخلال بالواجب منها الإثم والمؤاخذة.

موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الشهادة

وقد رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سأل رجلًا عن آخر أراد أن يعرف عدالته، فسأله عن جواره له، ومرافقته في السفر، ومعاملته بالدرهم والدينار، فلما لم يعرفه إلا من رؤيته في المسجد، قال له: «اذهب، فإنك لا تعرفه".وفي هذا الأثر دلالة على أهمية معرفة أحوال الناس في معاملاتهم ومخالطتهم، وألا يُكتفى في الحكم على أمانة الإنسان وعدالته بمجرد رؤيته في المسجد؛ فإن المعاملة تكشف من أخلاق الإنسان وخصاله ما قد لا يظهر في غيرها.".[1]

المحور الرابع: خدمة الناس وأداء الحقوق قد يقدمان على بعض النوافل

إن الإسلام لا يريد من المسلم أن ينشغل بنوافل العبادة عن واجب عليه، أو أن يترك محتاجًا قادرًا على مساعدته، ثم يظن أن اعتزاله الناس للعبادة هو الأفضل في كل حال.

فقد تكون خدمة الناس، وقضاء حاجاتهم، وتفريج كرباتهم، أفضل من نافلة معينة في ظرف معين؛ لا لأن الشعائر قليلة القيمة، بل لأن أداء الواجبات ومراعاة المصالح المعتبرة من صميم الشريعة.

عن ابن عباس رضي الله عنهماقال سمهت النبي يقول: " أَحَبُّ الناسِ إلى اللهِ أنفعُهم للناسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سرورٌ تُدخِلُه على مسلمٍ، تَكشِفُ عنه كُربةً، أو تقضِي عنه دَيْنًا، أو تَطرُدُ عنه جوعًا، ولأَنْ أمشيَ مع أخٍ في حاجةٍ؛ أَحَبُّ إليَّ من أن أعتكِفَ في هذا المسجدِ –يعني: مسجدَ المدينةِ– شهرًا، ومن كظم غيظَه ولو شاء أن يُمضِيَه أمضاه؛ ملأ اللهُ قلبَه يومَ القيامةِ رِضًا، ومن مشى مع أخيه في حاجةٍ حتى يَقضِيَها له؛ ثبَّتَ اللهُ قدمَيه يومَ تزولُ الأقدامُ"[2].

ومن المعاني الثابتة في هذا الباب قول النبي ﷺ:والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» رواه مسلم.

---

(1) وقد أورد هذه القصة الترمذي في أدب النفس، وابن قتيبة في عيون الأخبار، واحتج بها شيخ الإسلام ابن تيمية. وقد اختلف أهل العلم في تصحيح أثرها؛ فصححه ابن السكن، ومال الشيخ الألباني إلى تصحيح أحد طرقه، بينما ضعفه العقيلي. يُنظر: إرواء الغليل (8/260–2637).

(2) أخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (6026)، وأبو الشيخ في ((التوبيخ والتنبيه)) (97)، وقوام السنة الأصبهاني كما في ((الترغيب والترهيب)) للمنذري (3/265) واللفظ له. والحديث ذكره الالباني في صحيح الترغيب رقم: (2623) وفي الصحيحة رقم (903).

وعَنْ عَائِشَةَ ، رَحِمَهَا اللَّهُ ، قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ:إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ.

«لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»

فكم من إنسان يحتاج إلى من يساعده في سداد دين، أو يرفع عنه ظلمًا، أو يسعى في علاجه، أو يعينه في عمله، أو يصلح بينه وبين أخيه!

وكم من شخص يظن أنه يتقرب إلى الله بكثرة النوافل، بينما أمامه حق واجب يستطيع أداءه، أو مظلمة يستطيع رفعها، أو محتاج يستطيع إغاثته!

ولذلك ينبغي أن يكون الفقه في العبادة مصحوبًا بالفقه في الأولويات، وأن يعرف المسلم متى يؤدي النافلة، ومتى يقدم الواجب، ومتى تكون خدمة الناس هي العمل الذي تقتضيه الشريعة في ذلك الوقت.

المحور الخامس: امتحان الأمانة في تفاصيل الحياة اليومية

إن استقامة السلوك لا تُختبر في المواقف الكبيرة وحدها، بل تظهر في التفاصيل التي قد يستهين بها الإنسان.

وتُروى قصة وعظية عن إمام انتقل إلى مدينة أخرى، واستأجر سائقًا يوصله إلى عمله بأجرة يومية قدرها خمسة دولارات. وفي أحد الأيام أعطى السائق عشرة دولارات، فأعاد إليه ستة دولارات بدلًا من خمسة.

فقال السائق الست انت امام المسجد فقال نعم قال لقد حدثت نفسي ان ازورك قبل يومين لكن اردت ان اختبرك اليوم قبل ان اتيك فوقع الامام مغشيا عليه لانه تصور عظم الجريمة التي كاد ان يقترفها لو الدولار فلما صحا من غفلته قال يارب احمدك لقد كدت ابيع الاسلام كله بدولار واحد .

والعبرة من هذه القصة أن الأمانة تُختبر حين يستطيع الإنسان أن يأخذ ما ليس له، وأن النزاهة الحقيقية هي أن يحفظ الحق ولو غاب الرقيب.

وهذا المعنى يتكرر في صور كثيرة من حياتنا:

- موظف يتقاضى أجرًا ولا يؤدي عمله كما ينبغي.
- تاجر يخفي عيب البضاعة عن المشتري.
- شريك يستأثر بالأرباح أو يخفي الحسابات.
- وارث يحرم أخته من حقها في الميراث.

- إنسان يشهد بما لا يعلم، أو يكذب ليحقق مصلحة.
- زوج يسيء إلى زوجته بالسب أو الضرب، ثم يظن أن التزامه ببعض الشعائر يكفيه.
- شخص يتساهل في أموال الناس، لكنه يتشدد في مسائل المظاهر الدينية.

إن هذه المواقف تكشف أن التدين لا يُختبر في المسجد فقط، وإنما يُختبر أيضًا في السوق والبيت ومكان العمل، وفي كل موقف يتعارض فيه الهوى مع الحق.

المحور السادس: بين المظهر الديني وحقيقة السلوك في واقعنا

إن من المؤلم أن نجد أحيانًا تناقضًا بين مظاهر التدين وبعض الممارسات اليومية؛ فقد يحرص الإنسان على مظهره الديني، لكنه يتساهل في الغش أو الكذب أو الاعتداء على حقوق الآخرين.

وهذا التناقض لا يجوز أن يُتخذ ذريعة للطعن في الدين أو التعميم على المتدينين، ولكنه يستوجب مراجعة النفس، وإعادة النظر في فهمنا لحقيقة الالتزام.

فليس كل من قصّر في معاملة دليلًا على فساد تدينه كله، كما أن مجرد المظهر الديني لا يكفي وحده للحكم على حقيقة الإنسان. وإنما ننظر إلى مجموع ما يظهر من التزامه، مع التثبت والعدل، ونحاسب أنفسنا قبل أن ننشغل بالحكم على الآخرين.

ومن صور التناقض التي ينبغي أن نواجهها بوضوح:

أن يحرص الإنسان على الصلاة، ثم يشهد زورًا؛ وأن يذهب إلى الحج والعمرة، ثم يأكل أموال الورثة؛ وأن يكثر من ذكر الله، ثم يطلق لسانه في أعراض الناس؛ وأن يتحدث عن الأمانة، ثم يغش في تجارته؛ وأن يدعو إلى العدل، ثم يظلم من هم تحت مسؤوليته.إن هذه الممارسات لا تمثل حقيقة الدين، ولا يجوز تبريرها باسم التدين.

المحور السابع: نماذج مشرقة في النزاهة والعدل والرحمة

حتى لا يقتصر الحديث على النقد والتحذير، من المهم أن نعرض نماذج إيجابية تبين كيف تتحول القيم الإسلامية إلى سلوك عملي.

أولًا: الأمانة في التجارة

تُروى عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أخبار في عنايته بأمانة البيع، وبيان عيوب البضاعة للمشتري. ومن القصص المشهورة قصة الثوب المعيب الذي بيع دون بيان عيبه، ثم بحث الإمام عن المشتري ليرد إليه ماله. وهذه القصة، بعد التحقق من مصدرها، تصلح مثالًا على أن الأمانة لا تتجزأ، وأن حفظ المال ليس واجبًا على المشتري وحده، بل على البائع أيضًا.وقد قال النبي ﷺ:مَن غشَّنا فليس منا» رواه مسلم.فالغش ليس مجرد مخالفة تجارية، بل إخلال بالأمانة ومناقض لمقتضيات الأخلاق الإسلامية.

ثانيًا: الرحمة والعدل عند القدرة

وتوثق الدراسات التاريخية اخبار رحمة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله بأهل القدس بعد استردادها.وخروج الصليبيين آمنين منها ، وافتداء أخيه للفقراء فيها ،قائلا:" إن ديننا يأمرنا بالعفو والإحسان، وأن نقابل السيئة بالحسنة، وأن نكون أوفياء بعهودنا، وأن نصفح عند المقدرة عمن أذنب ".[3]فالعدل ليس قيمة نطبقها عندما توافق أهواءنا، والرحمة ليست خلقًا نمارسه مع من نحب وحدهم، وإنما هما من القيم التي ينبغي أن تضبط سلوك المسلم في مختلف الأحوال.

المحور الثامن: المظالم وخطر الإفلاس يوم القيامة

وهذا من أقوى المحاور التي أقترح أن تكون قريبة من نهاية المحاضرة؛ لما فيه من أثر إيماني عميق، ولأنه يجمع موضوع العبادة بحقوق الناس.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال:إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار.رواه مسلم.

---

(3) هذه التفاصيل التاريخية موثقة بدقة شديدة في أمهات الكتب والمصادر المعاصرة للحدث والمؤرخة له؛ومنها : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية للمؤرخ بهاء الدين بن شداد، و"الفتح القسي في الفتح القدسي" للعماد الكاتب الأصبهاني، و"الكامل في التاريخ" للمؤرخ ابن الأثير،و"تاريخ الأعمال التي جرت في بلاد ما وراء البحار"للمؤرخ الصليبي إرنول (Ernoul)،وغيره كثير.

إن هذا الحديث يضعنا أمام حقيقة عظيمة: أن أداء العبادات لا يمنح الإنسان حصانة من تبعات الظلم، وأن حقوق العباد أمر خطير، لا يكفي فيه أن يكثر المرء من النوافل مع بقائه مصرًّا على الاعتداء على الآخرين. فمن أخذ مالًا بغير حق، فعليه أن يرده إلى صاحبه أو يتحلل منه على الوجه المشروع. ومن ظلم إنسانًا، فعليه أن يتوب من ظلمه، ويسعى إلى رد الحق وإصلاح ما أفسده، بحسب ما تقتضيه الحالة وأحكامها.

ومن هنا فإن محاسبة النفس لا ينبغي أن تقف عند السؤال: كم صليت؟ وكم صمت؟ وكم تصدقت؟ بل ينبغي أن تشمل أسئلة أخرى:

هل أديت الأمانات؟ هل حفظت أموال الناس؟ هل أنصفت من اختلفت معه؟ هل أعطيت كل ذي حق حقه؟ هل كففت أذاك عن الناس؟

إن هذه الأسئلة ليست تقليلًا من شأن العبادة، بل هي استكمال للمحاسبة التي يدعو إليها الدين.

المحور التاسع: هل خرج أثر المحراب إلى ميدان الحياة؟

أيها الإخوة الكرام، ليس المطلوب أن نكون أهل مساجد فحسب، ولا أن نكون أصحاب أخلاق حسنة بمعزل عن عبادة الله، وإنما المطلوب أن نجمع بين الأمرين: عقيدة راسخة، وعبادة صحيحة، وسلوك مستقيم، ومعاملة حسنة.

فلنراجع أنفسنا:هل حفظنا أموال الناس كما حرصنا على صلواتنا؟ وهل أدينا حقوق الورثة كما حرصنا على أداء الزكاة؟ وهل كففنا ألسنتنا عن الأذى كما حرصنا على ذكر الله؟ وهل شعر أهلونا وجيراننا وزملاؤنا بأن تديننا زادنا رحمة وصدقًا وأمانة وعدلًا؟

إن الإسلام الذي نعبده في المحراب هو نفسه الإسلام الذي ينبغي أن يظهر في بيوتنا وأسواقنا وأعمالنا وعلاقاتنا بالناس.

فلا تعارض بين عبادة الله والإحسان إلى خلقه، ولا يغني أحد الجانبين عن الآخر. ومن تمام العبودية أن يؤدي المسلم حق الله، وأن يحفظ حقوق عباده، وأن يجعل من إيمانه دافعًا إلى الصدق، ومن صلاته معينًا على الاستقامة، ومن تقواه حاجزًا عن الظلم والغش والعدوان.

فلنخرج من محراب العبادة إلى ميدان المعاملة، حاملين معنا خشوع الصلاة، وتقوى الصيام، وإخلاص الدعاء، وصدق الإيمان، وأمانة التعامل، وعدل الأحكام؛ حتى يكون ديننا ظاهرًا في عبادتنا، وشاهدًا لنا في أخلاقنا، وأمانًا للناس في تعاملنا.

نسأل الله تعالى أن يحسن عبادتنا، ويهذب أخلاقنا، ويطهر أموالنا، ويعيننا على أداء الحقوق، وأن يجعلنا ممن إذا تكلموا صدقوا، وإذا اؤتمنوا أدوا الأمانة، وإذا عاملوا أنصفوا، وإذا قدروا عفوا وأحسنوا.

والحمد لله رب العالمين.

الدكتور محمد عبد الغني